تراثنا.. نظم متكاملة من التفاعل الإنساني والبيئي

عطوفة الأستاذ الدكتور فوزي قاسم أبو دنة
مدير عام دائرة الآثار العامة

في عالمٍ تتكثف فيه الأزمات وتتشابك -من التحولات المناخية إلى الاضطرابات الاقتصادية والسياسية- لم يعد التراث مجرد انعكاسٍ للماضي، بل أصبح إطارًا لفهم الحاضر وأداةً عملية للتعامل مع اللايقين. فالخبرات التي راكمتها المجتمعات عبر الزمن، والمخزّنة في أماكنها وأنماط عيشها، تمثل أشكالًا من المعرفة التطبيقية التي تُعيد تعريف كيفية التكيّف مع الأزمات، ليس من خلال ردّ الفعل، بل عبر بناء أنظمة قادرة على الصمود والاستمرار.

في الأردن، تتجسد هذه الفكرة بوضوح من خلال تنوع المواقع التي لا تُقرأ بوصفها شواهد مادية فقط، بل كنظم متكاملة من التفاعل الإنساني والبيئي. ففي مدينة السلط، لا تكمن القيمة في عمرانها التاريخي فحسب، بل في نسيجها الاجتماعي الذي شكّل نموذجًا فريدًا للعيش المشترك. لقد لعبت الفراغات الحضرية- من الساحات العامة إلى الدواوين والأدراج المتدرجة- دورًا محوريًا في بناء العلاقات المجتمعية، حيث لم تكن هذه الفضاءات مجرد عناصر تصميمية، بل منصات يومية للتفاعل، والحوار، والتكافل.. وعلى مستوى الاستدامة في البيئات القاسية، يبرز موقع أم الجمال كنموذج متقدم للتكيف مع الندرة. فالعمارة البازلتية، وأنظمة حصاد المياه، وتنظيم الكتل العمرانية، جميعها تعكس فهمًا عميقًا للبيئة الصحراوية قائمًا على الاقتصاد في الموارد وتعظيم كفاءتها، حيث يصبح التكيّف مع الطبيعة شرطًا للاستمرارية لا عائقًا أمامها. أما في وادي رم، فإن التراث يتحول إلى سجلّ مفتوح للسرديات الإنسانية؛ إذ توثق النقوش الصخرية مسارات الترحال، والتفاعل، والتطور المعرفي عبر آلاف السنين. هذه السرديات لا تعكس التاريخ فقط، بل تكشف عن علاقة متوازنة بين الإنسان وبيئته، قائمة على الفهم العميق والاستجابة الذكية للتحديات. وفي المغطس، يظهر التراث بوصفه تجربة حية تجمع بين البعد البيئي والروحي. فالموقع لا يُحفظ كأثر فقط، بل يُمارس كفضاء حيّ تُحترم فيه حساسية البيئة وتُصان برّيته، مما يضمن استمرارية طابعه الروحي دون الإخلال بتوازنه الطبيعي.

وفي قلب الصحراء، يقدّم قصير عمرة مثالًا لافتًا على أن الإبداع الفني لا يُقيَّد بالظروف، بل قد يولد تحديدًا في أكثر البيئات قسوةً وعزلة. فالجدران المزينة بالجداريات الغنية بالتفاصيل، والانسجام بين الفن والوظيفة، يعكسان قدرة الإنسان على إنتاج الجمال والمعنى حتى في أقسى السياقات البيئية، بما يؤكد أن الثقافة ليست رفاهية، بل جزءًا أساسيًّا من استدامة الوجود الإنساني. أما البترا، فتتجاوز كونها إنجازًا معماريًا لتكون ملتقىً للثقافات ومحورًا للتبادل التجاري عبر العصور. لقد أسهم تفاعل المجتمعات المختلفة عبر التجارة في إنتاج عمران فريد يجمع بين التأثيرات الثقافية المتعددة والحلول البيئية الذكية. هذا التفاعل لم يقتصر على إبداع النحت والفن المعماري، بل تجلّى كذلك في أنظمة مائية مبتكرة مكّنت المدينة من الاستدامة في بيئة قاسية، مما جعل البترا مثالًا حيًا على كيف يمكن للتنوع الثقافي والعبقرية التقنية أن يتكاملا لإنتاج نموذج عمراني مستدام. من خلال هذه النماذج، يتضح أن التراث الحي لا يتمثل في عناصر مادية فقط، بل في أنماط التفكير والمعرفة المتوارثة التي مكّنت المجتمعات من الاستمرار. إنه إطار ديناميكي يمكن من خلاله قراءة الحاضر واستشراف المستقبل. ومن هنا، تتجلى القيمة الحقيقية للتراث العالمي، ليس فقط كإرث إنساني مشترك، بل كأداة للتعلّم والتكيّف، ومنصة لبناء نماذج أكثر استدامة ومرونة في عالمٍ يتزايد فيه عدم اليقين.

القرّاء الكرام للمشاركة في الأعداد القادمة بمقال في الآثار أو أحد علومها أو التاريخ أو بصور احترافية، الرجاء التواصل مع مدير التحرير على البريد الإلكتروني:
atharna@doa.gov.jo
هاتف: 4644336/06 • فاكس: 4615848/06

مجلة علميّة توعويّة إخباريّة دورية
تصدر عن دائرة الآثار العامة
السنة السادسة • العدد الثالث والثلاثون • 2026

رئيس التحرير
الأستاذ الدكتور فوزي قاسم أبودنه
مدير عام دائرة الآثار العامة

مدير التحرير
د. عبدالله فهد اللبابدة

هيئة التحرير
د. علي عطاالله الحاج
أسامة لطفي عيد
هناء محمود لافي
ضحى محمد الحويان
مريم عمر إبراهيم

تصميم وإخراج
أسامة لطفي عيد
سلام توفيق العمري

تصوير
شادي البستنجي

الآراء الواردة في المقالات العلمية والأدبية لا تعبر بالضرورة عن رأي دائرة الآثار العامة

الغلاف الأول شعار التراث العالمي 2026.
الغلاف الأخير مواقع التراث العالمي الأردنية.